

الدرس الخامس عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وزدنا علماً .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :
وعن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قال : كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأَنَا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ «نَعَمْ» فَقُلْتُ هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ «نَعَمْ وَفِيهِ دَخْنٌ». قُلْتُ وَمَا دَخْنُهُ؟ قَالَ «قَوْمٌ يَسْتَتُونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ». قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ «نَعَمْ فِتْنَةٌ عَمِيَاءٌ وَدُعَاءٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا». قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ «قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا

وَيَتَكَلَّمُونَ بِالسِّنْتِنَا». قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ ؟ قَالَ «تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ». فَقُلْتُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةً وَلَا إِمَامًا ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَصَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يَأْتِيكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ» أخرجاه ، وزاد مسلم : ((ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ ؛ فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ عَنْهُ وَزُرُّهُ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ وَجَبَ وَزُرُّهُ وَحُطَّ أَجْرُهُ ، قَالَ : قُلْتُ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ)) .

أورد المصنف رحمه الله حديث حذيفة بن اليمان المخرَّج في الصحيحين -صحيح البخاري ومسلم رحمهما الله- في هذا الباب : «باب قول الله تعالى ﴿فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ [الروم: ٣٠] ؛ لأن هذا الحديث العظيم حديث حذيفة فيه بيان ما ينبغي أن يكون عليه من يريد إقامة وجهه للدين حنيفاً من حذر وبعد عن الشرور والهلكات والأمور الصارفات عن دين الله ﷻ ، وأنه عليه أن يعلم أن أمامه في هذه الحياة فتنة صارفة وأهواء جارفة لا بد أن يكون على حذر منها وخيطة من الوقوع فيها ؛ ليسلم له دينه ، وليتم له إقامة وجهه للدين حنيفاً، فكما أن الإسلام حفظ للأوامر والطاعات فإنه كذلك بُعد عن النواهي والأهواء والشبهات وحفظ لدين الله ﷻ ، ولهذا ساق المصنف رحمه الله هنا حديث حذيفة العظيم ليبين ما ينبغي أن يكون عليه من أراد لنفسه إقامة الوجه للدين حنيفاً بلا زيغ ولا انحراف .

وحديث حذيفة فيه آية من آيات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه أخبر فيه بأمور أعلمه الله ﷻ بها تكون في المستقبل مما يتعلق بأحوال أمته بعده؛ حيث ذكر عليه الصلاة والسلام أطواراً تمرُّ بها الأمة ، طوراً من بعد طور . أمة محمد عليه الصلاة والسلام بعد أن أنقذهم الله ﷻ من الجاهلية وخلصهم من عمايتها وغوايتها وضلالها وغيتها وظلمها وظلامها فأصبحت أمة على خير يذكر هنا ﷺ أطواراً للأمة ستمرُّ بها ، وهو ﷺ لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤] ، ثم يذكر عليه الصلاة والسلام ماذا ينبغي أن يكون عليه المسلم الذي يريد لنفسه إقامة الوجه للدين بدون زيغ وانحراف؟ يبين عليه الصلاة والسلام ماذا ينبغي أن يكون عليه الإنسان عندما يمر به طور من تلك الأطوار التي أشار إليها في الحديث . وهو حديث عظيم جداً وفيه فوائد كبار وتأصيلات عظام وتقييدات جليلة يحتاج إليها المسلم حاجة ماسة .

يقول حذيفة رضي الله عنه : ((كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَأَنَا أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي))؛ هذه الكلمة التي قالها حذيفة رضي الله عنه في صدر هذا الحديث هي توطئة منه ﷺ للسؤالات التي ذكرها وذكر أنه تقدم بها إلى رسول الله ﷺ ، سيئر عليك في سؤالاته «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ ؟» فلم هذا السؤال؟ هو جاء في مقدمة هذا الحديث بتوطئة يبين فيها سبب تلك السؤالات ، لماذا كان يسأل النبي ﷺ تلك السؤالات ؟

سؤالات عديدة : «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟» ، ثم يقول: «هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟» ، ثم يسأل «هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟» ، ثم يسأل «ثُمَّ مَاذَا؟» ؛ أسئلة كانت متوالية عظيمة جداً نافعة ترتب عليها خيرٌ عظيم لكنه ﷺ وطأً لتلك الأسئلة بقوله : «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ وَكَنتَ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَهُ» وأصبحت كلمته هذه قاعدةً علمية عظيمة الشأن جليلة القدر يحتاج إليها كل مسلم ، أعني قوله ﷺ «كَنتَ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَهُ» فهي قاعدة مهمة في باب العلوم والفقه في دين الله ﷻ .

«كَنتَ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَهُ» ؛ منبهاً بذلك إلى أصل عظيم في فقه الشريعة ومعرفة الدين ألا وهو : أن المسلم لا يكفيه أن يعرف الفرائض والواجبات والرغائب والمستحبات ؛ بل لابد أن يكون على معرفة بالمحرمات ولو إجمالاً من أجل اتقائها ، رب العالمين حرم في كتابه في آيات كثيرة الشرك ، فمن لم يعرف الشرك كيف يتقيه؟! ، حرم البدع ونهى عنها وحذر منها ، فمن لم يعرفها كيف يتقيها؟! حرم الكبائر فمن لم يعرفها كيف يتقيها؟! وقد قيل : «كيف يتقي من لا يدري ما يتقي» ؛ لابد من معرفة هذه الأشياء للحذر منها ، ولهذا علل ﷺ السر في هذه المعرفة قال : ((وَكَنتَ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةً أَنْ يُدْرِكَنِي)) ؛ فيسأل عن الشر ليعرفه ويعرف حقيقته ويعرف صفته ليكون منه على حذر .

وهذا فيه تنبيه أن من لا يعرف الشر قد يقع فيه من حيث لا يشعر ، بل وقع أقوامٌ في شرور كثيرة وفي شركيات صريحة وفي بدع مضلة وهم في قرارة نفوسهم يظنون أنهم على خير وأنهم على هدى وإيمان وصلاح ، فهو يقول : ((كَنتَ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَهُ)) يعني خوفاً من أن أقع فيه . والقائل لهذه الكلمة صحابي جليل ومن علماء الأمة ومن الفقهاء ومن الأعيان؛ يقول : ((كَنتَ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَتَهُ)) يخاف من الشر ، فإذا كان هذا الصحابي الجليل الذي هو في زمن الخيرية وفي صدر الأمة يخاف ويسأل فكيف بالأزمان المتأخرة التي تتكاثر فيها الفتن والشرور والبدع والأهواء والانحرافات والزيف عن دين الله!! فلا شك أن الأمر أعظم في حق من أراد لنفسه إقامة وجهه للدين ، أما الذي لا يبالي بدينه ويخاطر بإيمانه فهذا شأنه آخر ، لكن الكلام في شأن من يريد إقامة وجهه للدين حنيفاً ، فهذا يتطلب معرفة للشر من أجل أن يُتقى ، كما قيل :

عَرَفْتُ الشَّرَّ لَا لِلشَّرِّ وَلَكِنْ لِتَوَقُّيهِ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ يَقَعْ فِيهِ

الذي لا يميز بين خير وشر يقع في الشر من حيث لا يشعر ، ولهذا احتاج الإنسان أن يعرف الشر ولو إجمالاً حتى يكون منه على حذر ، والله ﷻ يقول في القرآن : ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَلْبَسِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] ؛ يعني تكون سبيل المجرمين واضحة ، ما فائدة وضوح سبيل المجرمين للمسلم؟ حتى يحذر منهم ومن سبيلهم ، أما الذي لم تستب له سبيل المجرمين يذهب إليهم ومعهم وهو لا يشعر ، فاستبانة سبيل المجرمين للإنسان ، استبانة سبيل الضالين ، استبانة سبيل المنحرفين الزائغين؛ هذا يجعله في حيطة وحذر من أن يقع في شيء من ذلك. ولهذا كانت كلمة حذيفة ﷺ قاعدةً عظيمة وتأصيلاً نافعا في هذا الباب .

((كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةً أَنْ يُذَكِّرَنِي)) ؛ الشر يدرك من لا يعرفه ، أما الذي يعرف الشر ويعرف أنه شر ويعرف صفة الشر وحقيقته ويجاهد نفسه على البعد منه ويسأل الله أن يعيده منه فهذا يكون في عافية ، والنبي ﷺ كان في تعوداته يتعوذ بالله من الشرور ؛ شر النفس ، وشر الشيطان ، وشر كل دابة أخذ بناصيتها رب العالمين ، فمن كان على علم بها مستعيذاً بالله مجانباً محتاطاً لدينه يسلم بإذنه ﷻ ، أما الذي يخاطر بدينه ولا يعرف الشر فهذا دينه على خطر ، قد يدركه الشر بل تدركه شرور كثيرة يقع فيها ويتضمخ في أنواع من الباطل والضلال .

قال : ((فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟)) ؛ حذيفة ﷺ يتحدث هنا مغتبطاً بنعمة الإسلام ومنة الهداية إلى هذا الدين فرحاً بها ويريد لها بقاءً وسلامةً ، ولما سأل هنا «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟» لم يسأل سؤالاً فارغاً من المعاني أو المقاصد ؛ بل له مقصد عظيم جداً وهو : إذا كان هناك شر قادم أو آتي ؛ حتى نحذر منه ونكون في حيطة وفي مجاهدة لأنفسنا في حفظ الدين وإقامته والبعد عن الزيغ والانحراف ، يسأل «فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟» ، يوضح سر السؤال وسببه قوله قبل قليل ((مَخَافَةً أَنْ يُذَكِّرَنِي)) هو يسأل حتى يعرف إذا كان فيه أشياء محتاط ويجذر منها .

قال : ((إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ)) ؛ يصف الحالة التي كان الناس عليها قبل الإسلام ، حيث كانوا في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء وشرور لا حد لها . أما الجاهلية ؛ فكان في الناس العقائد الباطلة ، واليحل الفاسدة ، والأهواء الزائغة ، والمعاملات الفاسدة ، ولا تسأل عن بابٍ من أبواب أحوال الناس وحياتهم إلا وتراه في جاهلية، وكانت جاهلية مطبقة ؛ ليست في بقعة من الأرض دون بقعة أخرى بل جاهلية خيمت على الأرض بأسرها ، حتى إن النبي ﷺ قال في الحديث الصحيح : ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ)) جاهلية خيمت على الأرض بكل أرجائها وجميع أطرافها غطت على الأرض ، ((إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)) أفذاذ قلائل جداً من أهل الكتاب بقيت فطرهم لم تتبدل ومستمسكين بالكتب السابقة ، ((بَقَايَا)) وإلا الجاهلية خيمت على الأرض ، ولا تسأل عن ألوان الفساد في عقائدهم وعباداتهم ؛ فساد في البيوع والمعاملات وما يتعلق بالأموال ، فساد فيما يتعلق بالأعراض والفروج والأنكحة ، فساد من جميع الجهات ، انتهاب ، قتل للأنفس ، إراقة للدماء ، انتهاك للأعراض ، استباحة للمحرمات ، جاهلية جهلاء طبقت على الأرض ، وكان مع الجاهلية شر ؛ أي شراسة في الناس وهي وليدة الجاهلية ، شراسة وفضاظة ورعونة وغلظة وعدوان وبغي وقتل ونهب وسلب . فاجتمع لهم هذان الأمران : الجاهلية والشر ؛ الجاهلية : انحلال في العقائد والعبادات . والشر : يعيش الناس حياة خوف وهلع لا يأمن الواحد على ماله ولا يأمن على عرضه ولا يأمن على نفسه، اختلال في جميع الأحوال .

فيقول حذيفة مغتبطاً : ((كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ)) ؛ وقوله «فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ» فيه أولاً الاعتراف بالنعمة والمنعم ؛ النعمة : الإسلام ، والمنعم : رب العالمين ، ((فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ)) ففيه اعتراف بالنعمة التي هي نعمة الإسلام أعظم النعم ، وفيه الاعتراف بالمنعم المتفضل وهو رب العالمين، قال عَجَّلَكَ : ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يُمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] ، وقال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧) فَضلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴿[الحجرات: ٧-٨] ؛ فالإسلام فضلٌ من الله ونعمةٌ من الله ، قال تعالى : ﴿وَأَنْ فَضَّلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١] ؛ فهي منتهى عِزِّهِ . الصحابة رَضُوا . كما في صحيح البخاري كانوا يقولون : ((لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا صُنْمْنَا وَلَا صَلَّيْنَا)) يعني لولا أن من الله علينا بهذا الدين وهدانا إليه وشرح صدورنا لقبوله لما كان ذلك ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] ؛ فهي منة الله عَجَّلَكَ وهو الهادي عِزُّهُ .

فيقول حذيفة مغتبطاً : ((فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ)) ، والمراد بالخير هنا : الإسلام ، وهنا أيضاً فائدة : وهي أن حياة الناس للخير وتحصيلهم له إنما يكون من جهة الإسلام ؛ بمعنى : أنه كلما عظم حظ الإنسان من الإسلام عظم حظه من الخير ، وكلما اجتهد الناس في حفظ الإسلام والمحافظة عليه والدعوة إليه والنهي عما يخالفه أو ينقصه بقي لهم من الخيرية بحسب ذلك ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ؛ فالخيرية مرتبطة بالإسلام ؛ فعلاً له ، وتحقيقاً ، ودعوةً ، وأمراً ، ونهياً وإصلاحاً ؛ فكلما كانت الأمة محافظةً عليه عظم حظها من الخيرية بذلك .

قال : ((فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟)) ؛ يعني هل سينتقل حال الناس بعد هذا الخير الذي عم وانتشر ؟ هل سيكون هناك شر بعده ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : ((نَعَمْ)) ؛ يعني سيكون هناك شر بعد هذا الخير . وهذا فيه تنبيه للناس أن الإنسان إذا كان يعيش حياة آمنة بالإيمان والإسلام والطاعة والمحافظة على عبادة الله هو وأولاده وأهله قد يفجأه في حياته امتحان بحيث أن شراً يحيط ، ، وكثير من الناس عندما يأتي الشر يتساقطون في الامتحان ، والشر امتحان للإنسان وابتلاء له فكثير من الناس يسقط ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ابتلاء

وامتحاننا، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأفـال: ٣٧] ، ﴿وَلِتَبْلُوكُمْ﴾ [محمد: ٣١] ؛ فـيبتلى الإنسان امتحاناً واختباراً وتمحيصاً ، ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] فيه امتحان وفيه افتتان فيه اختبار ، فهذا الشر يكون امتحاناً وابتلاء من الله ﷻ للناس . وحذيفة سأل للسبب الذي ذكره قريباً : ((مَخَافَةٌ أَنْ يُدْرِكَنِي)) ؛ يعني حتى يحذر ويحتاط ، من ذلكم أنك تسأل الله ﷻ أن يعيذك من الشر ، هذه المعرفة تحرك فيك تعوداً "اللهم أعـدنا من الشر ، اللهم سلّمنا ، اللهم إنا نعوذ بك من شرور أنفسنا" ، لما يقال لك مثلاً أن عدواً متوقع مجيئه تجد نفسك مجتهد في إصلاح نفسك وفي تهيئة أمرك ودعاء ربك والإلحاح عليه .

((فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ : نَعَمْ)) هذا طور ، الطور الأول: الخير الذي عم وانتشر في حياة النبي ﷺ ، ثم يأتي طور وهو الشر ؛ يعني يكثر الشر ويفشو وينتشر ويكثر دعائه وتبناه دول وجهات وأفراد ، ينتشر ويطغى على كثير من الناس ، فأشار عليه الصلاة والسلام إلى أن بعد هذا الخير يوجد شر ، لما سألـه «هَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ : نَعَمْ» .

هنا أنه : أن الشر المعني هنا ليس شراً مطبقاً تماماً بمعنى أنها عودة إلى الجاهلية الأولى ، فهذا لا يكون ؛ الجاهلية المطبقة انتهت بالإسلام ، وقد قال ﷺ : ((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ)) ، فالحق باقٍ وله أعوان وله أنصار ، محفوظ بحفظ الله ﷻ ، ولهذا لا يصح للإنسان في وقت من الأوقات أن يقنط الناس ويئسهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح ((إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ)) وفي رواية ((فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ)) ؛ لأنه إذا قال : "هلك الناس ، ما عاد بقي من خير ، الشر أطبق علينا من كل جانب ، ما بقي في الناس خير" ؛ إذا قال مثل هذه الكلمات ماذا يُحدث ؟ قال ((أَهْلَكُهُمْ)) لأنه يئسهم ، يقنطهم ، يُضعف عزائمهم ، يُفتر همهم ؛ وهذا باطل لا يجوز ، لأنه إذا كان بهذه الصفة يكون هو نفسه القنوط مسيطر عليه ويرى أن الأمر انتهى ، فهو في نفسه هالك وأيضاً مهلك للآخرين . وهذا فيه تنبيه: أن الواجب على المسلم أن لا يسيطر عليه يأسٌ في أي مرحلة وفي أي وقت ، بل يكون دائماً متفائل ومستبشر وطامع في رحمة الله ﷻ وفضله ومقبـل ؛ حتى وإن تكاثرت الشرور وأحاطت وتعددت وتنوعت وكثرت دعاها لا يقنط ، بل يكون دائماً مستبشراً متفائلاً طامعاً عاملاً ناصحاً داعياً يؤدي عمله ، أما إذا وصل إلى مرحلة يقول فيها : "هلك الناس ، ما بقي خير" أو نحو هذه الكلمات أو ما يؤدي معناها ؛ فهذا يهلك نفسه ويهلك غيره ، ويكون بذلك قد سيطر عليه هو القنوط ، وبدأ ينشر في الناس قنوطاً ويئساً ، وهذا شر والعياذ بالله . فهذا أمر ينبغي أن يتنبه له المسلم وأن يحذر .

وبعض الدعاة أحياناً لا يوفق في طرحه ؛ عندما يبدأ يسرد للناس في خطب أو في محاضرات قوائم بأنواع الشرور وأماكنها ويسرد لهم سرداً حتى يكون من أمامه الفائدة التي حصلوها إحباطاً ؛ "الشر من كل جانب ، ولا حول

لنا ولا قوة " ، ويدبّ لقلوبهم يأس وقنوط ، وتُذكر أرقام مهيلة ومخيفة تضرر بالناس ؛ فهذا ليس من النصيح في دين الله ﷻ ، النصيحة تكون ببيان الحرام والتحذير منه ، ويمكن أن يشار إلى وجوده ، يشار إلى وجود دعاة له ، ويقال للناس الخير باقي والله الحمد أهله موجودون والناس في خير ، وإذا ذهبتم إلى أماكن خير سترون الخير وترون أهله ، ومن يذهب إلى أماكن الشر يرى الشر ويرى أهله ، فيدل الناس على الخير وعلى أماكنه وعلى أهله ، أما إذا ذكر للإنسان فقط دعاة الشر وأهل الشر وأنواع الشر بالأرقام وأهمل جانب الخير هذا من أخطر ما يكون ، والأمر المفروض يكون بالعكس .

قال حذيفة رضي الله عنه ((فَقُلْتُ وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟)) ؛ يعني إذا صار حال الناس إلى ذلك الشر فهل يرجعون إلى الخير وهل ينتشر خير بعد الشر الذي وُجد ؟

((قَالَ : نَعَمْ وَفِيهِ دَخْنٌ)) ؛ الدخن معروف وهو الكدر والكدورة . يعني فيه خير وفيه أيضاً أشياء تكدر صفوه، والدخن هو في الأصل التعتيم الذي يكون في الجو بسبب الغبار أو الدخان ، وأنت تعلم أن إذا كان الجو فيه دخان أو غبار نأثر يعتّم عليك الطريق ويُضعِف الرؤية ؛ فكذلك في باب الخير عندما يكون في الخير دخن يكون الأمر بهذه الصفة .

وقوله : ((فِيهِ دَخْنٌ)) هذا فيه إشارة إلى أمرين: الأمر الأول يتعلق بقلوب الناس أو قلوب كثير منهم ، من جهة ما قد يكون في القلوب من تكالب على الدنيا أو أحقاد أو حسد أو ضغائن أو نحو ذلك من الأمور؛ هذا دخن. وأيضاً من حيث استبانتهم للحق وعلمهم به ومعرفتهم بالطريق والجادة والسنة، فيكون عندهم دراية ، ويكون عند عدد منهم دخن في ذلك وغبش وعدم وضوح ، وربما يدخل عليهم بعض الأعمال التي هي ليست من سنة النبي عليه الصلاة والسلام .

((قَالَ : نَعَمْ وَفِيهِ دَخْنٌ))؛ أنت تتساءل هنا : وما هو هذا الدخن ؟ هذا سؤال -مثل ما يقولون- يطرح نفسه، وطرحه حذيفة ، حذيفة ﷺ كانت أسئلته عجيبة جداً ، أسئلته أسئلة شخص مغتبط بدينه فرح به مسرور بالخير الذي انتشر وعم وتزايد وكثر ، يريد هذا الخير يبقى له وللناس فبدأ يسأل أسئلة المشفق الحريص الناصح لنفسه ولغيره ، فهي حقيقة أسئلة عظيمة جداً مباركة طرحها رضي الله عنه وأرضاه وجزاه عنا على هذه الأسئلة خير الجزاء وأعظمه وأوفره .

قال: ((وَمَا دَخْنُهُ؟)) ؛ أنظر هذا السؤال العظيم «وما دخنه ؟» .

((قَالَ : قَوْمٌ يَسْتَنُونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنَكِّرُ)) ؛ هذا معنى «الدخن» . وهنا يشير عليه الصلاة والسلام أن هؤلاء الذين فيهم هذا الدخن عندهم خلل من جهتين؛ الجهة الأولى : مصدر التلقي ، والجهة الثانية: الأعمال التي يقومون بها .

■ فمصدر التلقي ؛ قال عليه الصلاة والسلام : ((يَسْتَتُونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي)) فتجد أحدهم إذا استدل يستدل إما بمنام، أو يستدل بتجربة ، أو يستدل بعقله ، أو يستدل بقصة ، أو..أو..الخ من أنواع ما جعلت مصادر للناس في استدلالاتهم ، فتجده يذكر أعمالاً وعبادات إلى غير ذلك ويستدل عليها بغير السنة .

تَبَّأَ لِمَنْ نَبَذَ الْكِتَابَ وَرَاءَهُ وَإِذَا اسْتَدَلَ يَقُولُ قَالَ الْأَخْطَلُ

الكتاب والسنة مهجورة ثم يستدل بأشياء أخرى !! لا يستدل بكلام الله ولا بكلام رسوله ﷺ ، فهذا فساد وانحراف وخلل في مصدر الاستدلال .

■ النوع الثاني من الخلل: خلل في العمل ؛ وهو نتيجة للأمر الأول ، من لم يستن بسنة النبي ﷺ اختل عنده العمل ووجد عنده الانحراف ، ولهذا قال: ((وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي)) ؛ غير هديه عليه الصلاة والسلام في عباداته وأعماله ، فترى فيهم البدع ، وترى فيهم الخرافات ، وترى فيهم أنواع من الانحرافات التي هي ليست من هديه عليه الصلاة والسلام ، قد كان ﷺ إذا خطب الناس يوم الجمعة يقول: ((أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)) فكان عليه الصلاة والسلام يحذّر من الضلالات والبدع، ويؤكد على لزوم الحق والهدى وسنته صلوات الله وسلامه عليه .

قال: ((قَوْمٌ يَسْتَتُونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ)) ؛ هذا أيضا فيه توضيح للدخن ، الخير الذي فيه دخن إذا نظرت إلى جانب الخير تعرف ، وإذا نظرت إلى جانب الدخن تُنكر ، ففيه جانب خير ، ليس شراً محضاً ، وإنما خيرٌ فيه دخن ، فأنت تعرف وتنكر ؛ يعني ترى خيراً وترى أعمالاً وترى سنناً وترى صلاحاً استقامةً نصحاً اجتهداً ، وتنكر أيضا ترى مع ذلك كله أموراً تنكرها ، وهذا يكون في الأفراد وفي عموم الناس . يعني تجد أحيانا شخص مقبل على الخير ومقبل على الطاعة ومقبل على العبادة وحريص على الدين لكنك تنكر فيه أشياء ليست من الدين ؛ بدع وخرافات ليست من دين الله ﷻ ، فأنت إذا نظرت إليه من جانب عرفت ، وإذا نظرت إليه من جانب آخر أنكرت، قال: ((تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ)) ؛ تعرف منهم خيراً وتنكر فيهم شراً ومخالفة .

قال: ((قَوْمٌ يَسْتَتُونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ)) ؛ هنا الآن لما عرفت هذا الوصف ، الوصف نفسه لهذا الدخن متضمن العلاج ، يعني لو قلت مثلاً : إذا وجد في مراحل الناس وأطوارهم هذه المرحلة وهي أنه يوجد من يستن بغير السنة ويهتدي بغير الهدى وتعرف منه وتنكر؛ ما الحل؟ الحل واضح ، الحل أن يجاهد الإنسان نفسه دائماً وأبداً على لزوم السنة والتمسك بهدي النبي عليه الصلاة والسلام ، ليس هناك مخرج إلا هذا ؛ ولهذا في حديث العرباض بن سارية قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى

اِخْتِلَافًا كَثِيرًا)) ما المخرج ؟ أجب دون أن يُسأل ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلٌّ بِدْعَةٌ ضَلَالَةٌ)).
 ((قُلْتُ فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرُ مِنْ شَرِّ؟))؛ كل هذه الأسئلة المتلاحقة من حذيفة رضي الله عنه أساسها قوله المتقدم «وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ خَافَةً أَنْ يُدْرِكَنِي» .

((قَالَ : نَعَمْ؛ فِتْنَةٌ عَمِيَاءُ)) ؛ الفتنة توصف بأنها عمياء لأنه بوجودها غالب الناس لا يبصرون الحق ولا يرونه ، فالفتنة تُعميهم عن الحق ، ولهذا يقال فتنة عمياء صماء ، لأنها تصرف كثير من الناس وتجرفهم وتبعدهم عن الحق والهدى .

((وَدُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا)) ؛ هؤلاء الذين قال عنهم صلى الله عليه وسلم دعاة على أبواب جهنم هل منهم واحد يقول للناس هلم إلى النار ؟! هل منهم واحد يقول إنني من دعاة جهنم فتعالوا معي إلى جهنم ؟! إذاً ما معنى قوله: ((دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ)) ؟ ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ [غافر: ٤١] ؛ ما معنى ﴿تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ ؟ بين قال: ﴿تَدْعُونَنِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِ الْغَفَّارِ﴾ [غافر: ٤٢] ، فمعنى قوله ﴿تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ جاء ما يفسره ﴿تَدْعُونَنِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ﴾ فهذه الدعوة إلى النار ، فالذي يدعو إلى الكفر يدعو إلى الشرك يدعو إلى الضلال هو في الحقيقة داعية إلى النار؛ فمعنى قوله صلى الله عليه وسلم ((دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ)) أي يدعون الناس إليها بدعوتهم إلى أعمالها ، فمن دعا الناس إلى عمل من أعمال جهنم وعمل من الأعمال الموصلة إلى النار فهو داعية على باب جهنم شاء أم أبى .

قال: ((دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا)) ؛ أي من أطاعهم فيما يدعونه إليه قذفوه في النار ، ثم هؤلاء الدعاة على أبواب جهنم عندما يدعون الناس إلى أعمال جهنم هل يدعون الناس إلى هذه الأعمال واصفين لها بأنها أعمال مهلكة أعمال مفضية إلى جهنم مفضية إلى الشر والهلكة ؟ لا ؛ وإنما يصفونها بأوصاف أخرى ويزينونها ؛ الشرك يزينونه يقولون : هذا توسل هذا شفاعة ، الربا: يقولون هذه فائدة ، الرشوة : يقولون هذه إكرامية ، الخمر : يقولون هذه مشروبات روحية ، أنواع الفساد : يقولون هذا رقي وتقدم وحضارة ، السنن والفرائض والواجبات بعضهم قال: هذه أغلال ، وبعضهم قال: هذه تعوق الإنسان وتعطله عن مشاركة الناس في ركب الحضارة ، المرأة والأبواب التي تُفتح عليها بالفساد يدخلون من جهة المساواة والعدل ورفع الظلم عن المرأة؛ إلى متى تُظلم المرأة ؟ إلى متى تُضم حقوقها ؟ إلى متى إلى متى إلى متى..؟ ويبدأ بعضهم يتجراً على أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام ((مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ)) كيف يقال ناقصة عقل وفي النساء من هي كذا ومن هي كذا !! فيهم الطبيبة والمهندسة... الخ كيف يقال ناقصات عقل ؟! وبهذا الطريق يدخل دعاة جهنم

على الناس تضييعاً للدين ، وتضييعاً للأخلاق ، وتضييعاً للفضائل ، وكلها تأتي بشعارات براقية : العدل ، المساواة ، رفع الظلم ، الحضارة ، الرقي ، التقدم ، أشياء من هذا القبيل حتى يُجَرَّف الناس ويُصرفون عن دين الله ﷻ ، ومن أكبر ما يدخل دعاة جهنم على الناس فيه من جهة فتنة النساء ، يقول عليه الصلاة والسلام : ((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ)) ، ((أَوَّلُ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ)). وفتنة النساء تدخل في بداية الأمر في فساد الأعراض ثم بعد ذلك فساد العقائد والأديان والانحرافات وضياع الدين . ولهذا ابن القيم رحمه الله في كتابه الطرق الحكيمة يقول : «وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَمْكِينَ النِّسَاءِ مِنْ اخْتِلَاطِهِنَّ بِالرِّجَالِ أَضَلُّ كُلِّ بَلِيَّةٍ وَشَرٍّ» ، وذكر عبر التاريخ حوادث وقصص كيف أن الشر يفشو وينتشر ؛ فتأتي دعوات برفع الظلم عن المرأة ويبدوون ينتقصون الأحاديث ويتكلمون فيها ويطعنون فيها ويقولون على الله وفي الله وفي دين الله ﷻ بغير علم ويحاولون التقول على الله ، يقول ﷺ : ((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَفْرَهُمْ امْرَأَةً)) يطعنون في ذلك ويستدلون استدلالات باطلة في غير بابها ؛ كل ذلك ترويج للضلال وللباطل .

فالنبى عليه الصلاة والسلام ذكر فتنة عمياء ، ودعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها . قال : ((يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا)) ؛ يعني أعطنا صفة هؤلاء . وهذا أيضا فيه فائدة : أن معرفة صفة دعاة الباطل تفيد الإنسان ، كم يحتاج عوام المسلمين أن تعطى لهم صفات لدعاة الباطل ؛ حتى يحذر منهم ومن سماع كلامهم ، حتى لا يدخلوه في أمور وفي ورطات ربما لا يتخلص منها .

((قَالَ : قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِالسِّنَتِنَا)) ؛ قال بعض المفسرين : يعني قوم من العرب منا وفينا . وقال بعضهم : منا أي على ملتنا يعني ينطقون ويتكلمون باسم الدين . الكافر عندما يخاطب المسلم تجدد المسلم حذر منه ويخشى على نفسه من آراءه ؛ حتى لو كانت آراءه في ظاهرها له فيها فائدة تجده حذر ويقول يمكن أن يقصد كذا أو يريد كذا ، لكن إذا كان الذي يدعوه من جلده وينطق بلسانه وبدينه! وبعضهم يبدأ ما يريد أن يقرره من ضلال بآية من القرآن ، يُسمع أحيانا من بعضهم فيما يدعو إليه من ضلال يبدأ بقوله تعالى : ﴿وَقُلْ

اعْمَلُوا فَاَسِيرُوا﴾ ﷻ [التوبة: ١٠٥] ثم يذكر أمور باطلة ، والعوام مثل ما قال ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين : «والناس أكثرهم مع ظاهر السكة ليس لهم نقد النقاد» ؛ لا يستطيع العامي ينقد ولا يستطيع أن يميز ، ومن دأب أهل الباطل وطريقتهم في قديم الزمان وحديثه أنهم كما وصفهم رب العالمين بذلك يخلطون الحق بالباطل ، يلبسون الحق بالباطل من أجل ترويج الباطل على الناس وإيقاع الناس فيه .

((قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ ؟)) ؛ يعني إذا بلغ الأمر هذا المبلغ ووصل هذا الحال ماذا تأمرني إن أدركت ذلك ؟

((قَالَ : تَلْزُمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ)) ؛ إذا كان في جماعة وفي إمام إلزم الجماعة والإمام ، ولا يدخل عليك الشيطان في الوقعة في الأئمة ؛ كأن يقول أحد هذا إمام جور ، أو يقول آخر هذا إمام ظالم ، أو يقول هذا إمام كذا ، إلزم الجماعة والإمام إذا كان يوجد جماعة وإمام ، ولم يشترط عليه الصلاة والسلام لم يقل : إلزم جماعة المسلمين وإمامهم إذا كان الإمام عادلاً أو إذا كان غير ظالم" ما اشترط ، قال : ((تَلْزُمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ)) ؛ إذا كان في جماعة وإمام إلزم الجماعة.

ثم ذكر حذيفة رضي الله عنه احتمال ؛ قد يصل الناس في مرحلة من مراحل حياتهم لا يكون إمام ، قال : ((فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةً وَلَا إِمَامًا؟)) ؛ يعني ليس لهم جماعة وليس لهم إمام فما الذي أفعله؟ ((قَالَ : فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا)) يعني لا تدخل مع الناس .

((فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنَّ تَعْصَى عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يَأْتِيكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ)) وهذه المرحلة التي فيها الإشارة في حديث حذيفة في وقتنا هذا كثير من الناس في بلدانهم فيه جماعة وفيه إمام ويتفاوت الأمر من منطقة إلى منطقة قوة وضعفا ، لكن الجماعة موجودة والإمام موجود ؛ فيلزم المسلم جماعة المسلمين وإمامهم وينصح لعباد الله بالرفق والكلمة الطيبة والدعوة إلى دين الله ويعلم وينشر الخير ، والله ويعلم ناصر دينه ومدافع عن عباده المؤمنين ، لكن تأتي البيوت من أبوابها وتُسلك الأمور من مسالكها الصحيحة بالدعوة والبيان والنصح والتعليم ، وأن يرفع الإنسان الظلم الذي هو واقع فيه بخوفه من الله ومراقبته الله وإصلاح بيته وولده ؛ والله ويعلم يصلح له حال بلده .

ويدعو لولادة أمره بالصلاح والهداية والسداد والتوفيق ، يقول الفضيل رحمه الله : «لو كان لي دعوة مستجابة ما جعلتها الا في السلطان» ، قال عبد الله بن المبارك : «ومن يقوى على هذا إلا مثلك» ؛ يعني هذه رتبة ودرجه ليس كل أحد يقوى عليها ، لو يتفكر الإنسان ويقال له هذه دعوة مستجابة لك أطلب الآن دعوة مستجابة ماذا تريد ؟ كثير من الناس يقول أريد فيلا جميلة من دورين ، من الذي يقوى أن يقول : اللهم أصلح ولي أمرنا ؟ من الذي يقوى إلا الإنسان الذي عنده فقه ومعرفة وإدراك ، ولهذا من علامة الخير ومن علامة السنة الدعاء لولادة الأمر بالصلاح والهداية . ومن علامة البدعة والهوى الدعاء عليهم ، والنبي ﷺ ثبت عنه أنه قال : ((لَا تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ)) ، بل يصبر ؛ إذا كان الأمير أو الوالي فاجراً يصبر على فجوره وينصح بالرفق وباللين والكلمة الطيبة ويدعو له بظهر الغيب ؛ يدعو له بالصلاح ، بالهداية ، بالتوفيق ؛ هذه النصيحة التي قال عنها عليه الصلاة والسلام : ((الَّذِينَ النَّصِيحَةُ ، قُلْنَا لِمَنْ ؟ قَالَ لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَاقِبَتِهِمْ)) . ويطرد من نفسه الغل ؛ ((ثَلَاثٌ لَا يُغْلُ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ : إِحْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ ويعلم ، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الْأَمْرِ ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ)) ؛ يطرد من قلبه الغل لأن الأهواء إذا وجدت أوجدت في القلب غلاً ولا يتقبل القلب لا لزوم جماعة ولا يقبل القلب أيضاً سمعاً وطاعة لولي الأمر ، ومصالح المسلمين وجماعتهم لا تنتظم إلا بإمام ، ولا إمام إلا بسمع

وطاعة . وساعة يعيشها الناس أو يوم يعيشه الناس بإمام جائر خير من سنوات طويلة يعيشونها بدون إمام "لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم" ، فإذا كان الناس بدون إمام فهذا هلاك لهم .

قال: ((تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ)) ؛ فذكر مرحلة أو حالة .

قال: ((فَإِنْ لَمْ تَكُنْ هُمْ جَمَاعَةً وَلَا إِمَامًا؟)) إذا وصل الأمر أن لا يوجد جماعة ولا إمام! كلُّ على رأسه فما العمل؟

قال : ((فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا)) ؛ وهذا تنبيه على الصبر على اعتزال الناس في مثل هذه الحال .

((وَلَوْ أَنَّ تَعْصُ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يَأْتِيكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ)) ؛ يعني تبقى بعيداً عن الناس منشغلاً بعبادة ربك وطاقته ودعائه واستغفاره إلى أن يأتيك الموت وأنت على هذه الحال .

قال: ((أَخْرَجَاهُ ، وَزَادَ مُسْلِمٌ)) ؛ قول المصنف رحمه الله «وزاد مسلم» هذه الزيادة في سنن أبي داود بسند ثابت، وليست في صحيح مسلم .

قال : ((وزاد مسلم : ثُمَّ مَاذَا؟)) يعني قال حذيفة : ((ثم ماذا؟)) ؛ لا تزال أسئلة هذا الصحابي الجليل الناصح الحريص على نفسه وعلى إخوانه جزاه الله خيراً ورضي عنه لا تزال أسئلته متوالية .

((قَالَ : ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَالُ)) يعني يعقب هذه المرحلة مرحلة خروج الدجال، وهو علامة من علامات الساعة وأمانة من أمارات قرب قيامها ، لأن الساعة لا تقوم حتى تخرج علامات من ضمنها خروج الدجال .

ولاحظ هنا ارتباطاً بين دعاة على أبواب جهنم وبين خروج الدجال بعد ذلك ، فكأنهم جاءوا قبله تمهيداً وتوطئة، ولهذا قال العلماء : أن قول النبي ﷺ ((مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ)) كما أنه يشمل الدجال الأكبر الذي خروجه علامة من علامات الساعة فإنه أيضاً يشمل الجنس ؛ بمعنى أنه يشمل الحذر من كل دجال يقول في دين الله بلا علم ، فأيضاً أمثال هؤلاء يُنأى عنهم، ((مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ)) ؛ ففتنة الدجال العظيمة ذاك الرجل الذي يخرج في ذاك الزمان إذا سُمع بها يُنأى عنها ، وأيضاً الدجاجلة الذين يدعون الناس إلى النار ودعائهم على أبواب جهنم أيضاً ينأى عنهم ؛ فلا يسمع إليهم ولا يقرأ لهم ويحذر من أقوالهم وكلماتهم، لأن النتيجة عند هذا وهؤلاء واحدة ؛ كلها إفشاء بالناس إلى نار جهنم ، ولهذا يأتون قبله وهو يأتي بعدهم فهم كالتوطئة له والتمهيد لمجيئه وقدمه، وأيضاً ترويض الناس لقبول ما يدعو إليه الدجال الأكبر ، فهم يأتون قبله ((دعاة على أبواب جهنم)) .

قال: ((قَالَ ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ)) ؛ سبحانه الله العظيم !! امتحان وابتلاء عظيم ، يخرج هذا الرجل ومعه نهر ونار ، ومكتوب على عينيه كافر يقرأها كل مسلم وكافر ، وإحدى عينيه طافية كأنها عنبه أو كأنها زبيبة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الدَّجَالَ ، وَإِنِّي أَنْذَرُكُمْوه ، أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرٌ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرٍ)) ؛ علامة واضحة ظاهرة عليه بينة ، ومعه نهر ونار ، وفتنته عظيمة ، والله ﷻ جعل في زمانه أموراً تظهر على يديه بإذن الله امتحاناً كما جاء في بعض الأحاديث أنه إذا مر على قرية ودعا أهلها للإجابة إلى

ما يدعوهم إليه ، لأنه يقول لهم أنا ربكم وهذه جنتي وهذه نار معي تمشي ؛ فتنة ، فإن أجابوه وإلا قال لكنوز قريتهم اتبعيني ، فتخرج الكنوز والناس يرونها تخرج وتتبعه ؛ هذه فتنة ، ولهذا يتبعه خلق يُفْتَنُونَ والعياذ بالله ، والنبي ﷺ يقول كما جاء في حديث ثابت ((إِنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ مُنْذُ ذَرَأَ اللَّهُ ذُرِّيَّةَ آدَمَ أَعْظَمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ)) ؛ فتنة عظيمة جداً وينجرف وراءها خلق يضلون عن دين الله جل وعلا بسبب الامتحان والافتتان الذي يحصل لهم ؛ ولهذا أمرنا في كل صلاة أن نتعوذ بالله من فتنته قبل أن نسلم ((وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ)) ، والصحابة كانوا أيضا يجلسون ويتذاكرون فتنته ويحذرون بعضهم بعضا من شره ؛ حتى يكون الإنسان على حصانة ، على معرفة به وتعوذ بالله تبارك وتعالى من شره .

((قَالَ: ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ ؛ فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطُّ عَنْهُ وَزُرُّهُ)) ؛ معنى وقع في ناره : يعني إذا دعاه الدجال أن يستجيب له وقال له إن لم تستجب ألقيتك في النار ؛ فعليه أن لا يستجيب ولو أن يلقيه في النار ، وإذا ألقى في النار ما الذي سيحدث ؟ قال عليه الصلاة والسلام : ((فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطُّ عَنْهُ وَزُرُّهُ)) فلا يبالي ، يصبر ويصمد ويتحمل وإذا ألقى في النار التي معه قال : ((وَجَبَ أَجْرُهُ)) أي على الله ، ((وَحُطُّ عَنْهُ وَزُرُّهُ)) : تحط عنه خطاياه .

((وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ)) ماذا يحدث ؟ قال : ((وَجَبَ وَزُرُّهُ وَحُطُّ أَجْرُهُ)) الذي وقع في نهره هو الذي استجاب له ولدعوته .

((قَالَ : قُلْتُ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ)) ؛ قد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ)) ، ((إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ)) ؛ وهنا فيه ارتباط بين هؤلاء وهؤلاء وكلهم شرار وصفهم بذلك عليه الصلاة والسلام ؛ الذين يتخذون القبور مساجد لأن هذه ذريعة الشرك ووسيلة وقوعه ، وشرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة هم الذين ليس عندهم إلا الشرك بالله ﷻ ، فجمع عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث بين الوسيلة والنتيجة ؛ وسيلة الوصول إلى الشرك: اتخاذ القبور مساجد سواء بالبناء عليها أو بتحري العبادة عندها ، ونتيجة ذلك: الشرك بالله ﷻ واتخاذ الأنداد .

وعلى كل ؛ فهذا الحديث العظيم حديث حذيفة بن اليمان مشتمل على فوائد عظيمة وجليلة ترتبت على هذه الأسئلة المباركة التي سألها حذيفة ﷺ للنبي ﷺ ، والنبي ﷺ نصح لأمته وأبان الحجة وأوضح المحجة وبين السبيل وما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذرهما منه ، فكان رسولاً أميناً ، وناصحاً مشفقاً ، ومعلماً رحيماً صلوات الله وسلامه عليه . والواجب على أتباعه والمؤمنين به ﷺ أن يجاهدوا أنفسهم على تعلم سنته ولزوم هديه وأن يحذروا أشد الحذر من البدع والأهواء . ومن الدعوات العظيمة الثابتة عنه ﷺ في المستدرك وغيره أنه كان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه : ((اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالإِسْلَامِ قَائِماً ، وَاحْفَظْنِي بِالإِسْلَامِ قَاعِداً ، وَاحْفَظْنِي

بِالْإِسْلَامِ رَاقِدًا ، وَلَا تُشْمِتْ بِي عَدُوًّا وَلَا حَاسِدًا ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ خَزَائِنُهُ بِيَدِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ
كُلِّ شَرٍّ خَزَائِنُهُ بِيَدِكَ)) وهي دعوة عظيمة جداً وجامعة لخير الدنيا والآخرة .
والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.